مريم

معربة عن الفرنسوية من الرسائل البانية

في سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) كان في الناصرة رجل نصراني اسمه يوسف . وكان قد تزوج امرأة كنعانية اسمها مرثا . فبارك الله اقترانهما وولدت مرثا بعد سنين ابنة حسناء تخجل البدر بطلعتها البهية. ولم يجد لها ابوها من الأسماء ما يذكر هذا الجمال البديع، والمنظر الرفيع، الا « مريم » تلك المذرآة التي قضت بضعة اعوام في هذه البلدة عينها فسماها باسمها . فحق ان يقال عن كل من هاتين المريمين :

ولو كانت النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجال.

نشأت مريم بين أترابها وهي بينهن كالبدر بين الكواكب الزاهرة، لان جمالها لم يكن الا امراً لا شأن له بالنسبة الى ما اتصفت به من الأوصاف التي تجعل الابنة في مقام رفيع من الحظوة عند الناس بحسن الآداب وتوخي الفضائل والمبرات، حتى اذا هزت السنة الثانية عشرة من عمرها، فقهها الاب انطونيو رئيس دير الرهبان الفرنسيسيين اصول الدين واعدها لتناول الاول .

في اثناء تعليمها مبادئ الديانة لاحظ رئيس دير اللاتين ذكاء هذه الابنة ما ميزها عن سائر أترابها . فعرض على والديها ان يعلمها القراءة والكتابة . ففرحا بهذه البشرى فرحاً لا مزيد عليه . واما مريم فكادت تطير من فرحها لما عرفت مأواه ابواها ومرشدها . لانها كانت تقول لمن يسمعها : ما اسعد حظي اذا تمكنت من مطالعة

الانجيل الجليل كما يمكنني ذلك . وما اعظم فرحي حينما اتبع الكاهن عند تلاوته التنزيل العزيز وانا اسمع كلام الله وقت القداس في الكنيسة التي هي بيعة مريم ومحل تبشيرها باجل البشائر .

مامضت ثمانية اشهر على ابتدائها بالدرس الا وانقنت مريم اللغة العربية والايطالية والاسبانية قراءة وكتابة . فهل بعد هذا الدليل الواضح مايبقى شكاً في توقد فؤاد هذه الفتاة الغيداء العربية الذكاء .

وان خفيت كانت لعينيك قرة وان تبد يوماً لم يعمك عارها
من الخفرات البيض لم تر شقوة وفي الحسب المحض الرفيع نجارها

فلما رأى الاب انطونيو هذه الابنة تتلقف من فيه العلم تلقفاً ، اوقفها على وقائع التاريخ وعلى علم تقويم البلدان وتخطيطها فشدت شيئاً منهما . وكانت كلما تعلمت بعض العلوم يتسع لعينيها افق المعارف وتنبسط تخوم افكارها وتمتد الى أبعد الاصقاع . والخلاصة انها كانت تزيد علماً وفضيلة كلما تقدمت سناً . لان العناية الصمدانية كانت قد جادت عليها بعوارف العقل والذكاء فزاد فؤادها توقداً المثابرة على الدرس وتعاطي اطراف العلوم . ولما بلغت البنة الخامسة عشرة من عمرها اصبحت ابنة يوسف خوداً من اشهر الخود بمضاء ذكائها وصدق اطلاعها على جل معارف القوم .

ذلك هو وصف مجمل مالازدان به عقلها الثاقب واما محاسنها الظاهرة فلا يصورها قلم ولو كنت مصوراً ماهراً او كاتباً جليلاً .

على انه مالا يدرك كله، لايترك جله. فكان قوامها خوط بان . في قراح من أرض لبنان . وشعرها الاسود الفاحم، يفحم كل شاعر ناظم :

اصفيرتان على بياض خدودها او في كتاب الحسن سلسلتان
اوليلتا العيدين اقبلتا معا او من قصائدهم معلقتان

وكان ثغرها عبارة عن نضدين من اللآلئ المتوالي . يزيدماءها بريقاً برمان من الارجوان . اما محياها فكان آية في حسن التقطيع كانه بيضة غضة، او بيضة في روضة، ولونه لون السنبل اذا نضج . وكان ثوبها الازرق . يشبها حسناً . كيف وقد :

لبست حسناء الغوير بنفسجاً يا ربنا صنها عن المعيان
فحل لون الحسن في لون الهوى العذري بالافرنج والسريان

وكان يجملها ازار يبرزها للناس قمراً من الاقمار ، لا سكناً من سكان هذه الديار. واما آدابها فكانت ايضاً من هذا الطرز العالي البديع فانها كانت حليمة، وديعة كالحمامة، رقيقة الشعور والقلب، تفض من طرفها اذا مشت، ومن صوتها اذا تكلمت. واذا جدت عليها بقطرة من الندى، كانت لك اشكر من بروقة . وهي مع ذلك في ابعد غاية من السذاجة وفي اعلى مقام من الطهر والعفاف . وهذه المناقب والخصال الحميدة كانت تزيدها حسناً وبهاءً . ولهذا كان اذا نظرها الناظر يظن انه يرى ملكاً من النور، اوغادة من حور القصور . وكل الناس كانوا يقدرونها حق قدرها لهذه المحاسن الفريدة التي تحلت بها، الا هي فانها كانت تجهل نفسها .

وهل احتاج بعد هذا التفصيل المجمل الى ان اقول لك ان اهل الناصرة من مسلمين ونصارى كانوا يعزونها اعظم الاعزاز، ويحبونها الحب العذري، فوق ما يدور في الخلد .

وكان يوسف ومريم يشكران العناية الالهية على كونها جادت عليهما بهذه الخريدة الفريدة، بل يتيمة الدهر الوحيدة، وكانا يطلبان الى الله ان يصونها من كل شائبة لتكون سعيدة في الدارين .

وكان من عادة مريم الغادة ان تجمع في بيت اهلها اترابها الناصريات، وتفقههن اصول الدين على الاسلوب الذي تلقته من الاب انطونيو . وكانت تفعل هذا الفعل عن طيبة خاطر وبغيرة تتقد اتقاداً. وكانت تفيدهم اعظم فائدة، لما كانت تلقيه عليهم من الشروح لتؤيد بها تلك الاصول الدينية في القلوب الغضة، وكل ذلك يخرج من فمها عفواً بدون تعمل او تصنع لانها كانت تتكلم عن كثرة حبها لله عز وجل لاغير . وكانت تلك النفوس الناشئة تتلقى تلك الافادات تلقي الوردة العطشى لندى الصباح . وتفعل فيها الفعل المكين .

ولو رأيت مريم بين اترابها لقلت هذه ارزة لبنان بين سائر أشجار الجنان . اذ انها كانت تقضي معظم نهارها في تعليم بنات الناصرة الخياطة والتطريز، ومطالعة الكتاب العزيز، وخدمة كنيسة القديسة مريم. ومما كان يطيب لها مناجاة العذراء في مصلاها في مغارة البشارة، حتى ماكانت ترى الا هناك كلما دخلت تلك البيعة، لان هناك ظهر ملاك الرب لابنة يواكيم ليبشرها بانها تلد للعالم مخلص الامم ولهذا لم ير ذلك

الموطن مزيناً مثلما كان يرى في عهد تردد الغادة اليه ولا سيما انها تتعهد فيه النظافة فوق مألوف العادة .

ومن جملة ما كان يذكر لهذه الابنة الصالحة في هذا المعبد انها كانت طرزت ستراً ابيض بقي مدة طويلة حول دمية العذراء مريم الموضوعة على الهيكل ، وكانت اواني البلور الموضوعة على المذبح مملوءة ازهاراً واوزاداً وانواع الرياحين ، تقطفها بيديها الرخصتين على منعطف هضبات الناصرة بينما كانت ترنم بصوتها الشجي انواع الترانيم العذبة ، ونور القناديل الضئيل يخيل للسامعات اترابها انهن يغردن معها تغريد الهزار ، عند بنيثق الانوار . واغلب تلك الالحان الشجية كانت طلبة العذراء وسائر الاناشيد التي يدور موضوعها على محاسن العذراء مريم وفضائلها . وكان كل من يسمع صوتها الزجل ويشاهد محاسنها الفتانة يندفع الى ان يقول رغماً عنه ما سمع يقال عن سميتها العذراء الحسناء : بانجم الصبح ، ووردة سرية ، ومرآة العدل ، وهيكل الحكمة ، ادعي لنا .

ونحن لا نريد ابداً ان نقيم مناسبة بين هذه الابنة الابية ، وبين سميتها العذراء النبية . فكلما نقوله هو من باب الخيال ، بالنسبة الى المثال . او من باب الصورة الى الحقيقة وهل من مناسبة بين ابنة خاملة الذكر فقيرة حقيرة وبين تلك البكر التي سحقت برجلها الطاهرة راس الحية الجهنمية واعادت مجد ابن آدم الساقط الى سابق عزه ، وسامق فخره . هل من مقابلة بين ابنة هي كالزهرة ابنة اليوم الذابلة الزائلة

وبين تلك الزهرة التي يضوع منها روح الحياة الخالدة . هل من مفاضلة بين غادة لاتعرف الا في قريه وبين عذراء طبقت الدنيا شهرتها وردد اسمها الاقوام وارتفع عرشها في اعلى السماء . من هي مريم ابنة يوسف بالنسبة الى مريم ابنة يواكيم . ابنة يوسف فقيرة حقيرة . وابنة يواكيم غنية ثرية . وعن كنز فضيلة كلتيهما اتكلم لا عن كنز الاموال الفانية . ابنة يواكيم رمزها القمر ، لان القمر يسلي بانواره الذهبية من يغوص في البحار الفكرية اويغرق في لجج الاحزان المضنية . ابنة يواكيم رمزها الزهرة ، ذلك النجم الذي يشع ضياء يجلو صدى القلب وينعش الفواد . ابنة يواكيم رمزها الشمس لانها بنور هداها ومحياها تطرد ظلمات الضلال الى حيث لارجوع منه .

نعم وان لم يكن مناسبة بين الزهرتين الزاهرتين ، الا اننا نقول انه يوجد بعض الشبه بينهما : فابنة يوسف ولدت كما ولدت مريم العذراء في وادي الناصرة . وكانت تقضي ايامها كالبتول الام في البيع والكنائس متذكرة في عملها هذا تلك التي قد تسمت باسمها الكريم العظيم . — ان ذوق ابنة يوسف واشغالها وعوائدها تنظر الى مثل تلك الاعمال التي كانت تأتيها ابنة يواكيم . هذا فضلاً عن ان جمال هذه الابنة وسناءها وبهاءها وخفرها يذكرنا محاسن تلك البتول التي قيل عنها : انها بهية تبهر الاعين والتي قال عنها القديس ديونيسيوس الاريوباجي : انني لولا علمي انه لايوجد الا الاله واحد لسجدت للعذراء سجودي للمعبودة .

اصفر الحصاد ست عشرة مرة على جبال الجليل وفى اوديته منذ ولدت مريم بنت يوسف وبعد ذلك جاء الطاعون تلك الطامة الكبرى التى تحفر القبور فى بلادنا الشرقية وتجرف النفوس جرفاً وتلقيها فى المدافن الفاغرة أفواهها. ومن جملة من اخذه سيل الموت او احتزه سيفه ام مريم. فكانت هذه الوفاة بمنزلة صاعقة نزلت على هذه المظلومة لانها كانت تحب والدتها محبة لا توصف بعد هيامها بالله وبالعذراء مريم. بيد انها لما كانت متمسكة بعروة الدين الوثقى كل التمسك سلمت امرها بيد خالقها متكلة على عنايته، وعلى ان امها انتقلت من دار الفرار الى دار القرار، وقد فازت بالنعيم المقيم.

وبعد ان مضى على هذا الحادث المشؤوم ستة اشهر وتصرمت ثلاث ليال بعد عيد جميع القديسين تذكرت مريم اهوال الموت وفظائعه، وتجددت قروح قلبها المصاب بانواع الآلام، لان فى تلك الايام تتذكر النصرانية جميع موتاها وتستمطر البركات على قبورهم. ومن غريب الاتفاق ان وجه السماء الصاحى السافر فى اغلب بلادنا الشرقية امتقع لونه، وتغضن جبينه، واكفهر سحابه، وتثاقل ضبابه. فضاق الافق على منفسحه، واحتجبت الشمس كانها لم تكن شارقة. ومما زاد فى هذا المنظر حزناً وكآبة تناثر اوراق الاشجار. وسكوت الاطيار. وهبوب الارياح. بين الادواح. هبوباً تتلاعب فيه الاوراق اليابسة. وتسمعك اصواتها المائتة كانها حفيف الافعى. اوسحيق الملى.

لها تابع